

نماذج من النخب العلمية القسنطينية بالمشرق الإسلامي

أواخر العصر الوسيط

عبد القادر مباركية. أستاذ مساعد- أ -

جامعة 8 ماي 1945 قالمة

1- مقدمة:

كغيرها من حواضر المغرب الوسيط، تمكنت مدينة قسنطينة من جمع رصيد لا بأس به من العلماء النابغين في شتى المجالات، واكتسبت بذلك مكانتها المرموقة والتميزة، ولما كانت الرحلة العلمية من أهم دعائم التكوين والتحصيل العلمي والمعرفي، فقد كان المشرق الإسلامي الوجهة المفضلة للعديد من العلماء القسنطينيين لأداء فريضة الحج من جهة ولطلب العلم من جهة أخرى، ثم الاستقرار هناك في نهاية المطاف كما حدث لأغلبهم بعد أن تمكنوا من اكتساب مكانة متميزة بين أقرانهم وتوغلوا في الحياة العلمية هناك إنتاجا وتأليفا وتوليا للمناصب العلمية والإدارية السامية. لقد شهدت القرون الأخيرة من العصر الوسيط في المشرق الإسلامي ظهور كتلة نخبوية عاملة من أصول قسنطينية متجذرة في أشهر المدن المشرقية وأوسعها شهرة وسمعة، وما ذاك إلا بسبب استقرار العلماء هناك وهي كذلك نتيجة لتراكمات واختلاط مع عائلات علمية محلية مشهورة مما ولّد نخبة جديدة وجدت الطريق أمامها ممهدًا لتولي المناصب العلمية وتمكّنت من ترك بصماتها بصورة واسعة في ميدان التأليف والإنتاج العلمي.

تميزت الدراسات التاريخية مؤخرا بابتعادها عن حقل السياسة واتجهت بكامل ثقلها نحو الحقول الثقافية والمعرفية بعد أن استهلكت معظم جوانب

الأولى، ومن الدراسات التي خصصت للحياة العلمية بقسنطينة النخبة والسلطة
ببجاية الحفصية⁽¹⁾، النخب العلمية القسنطينية⁽²⁾.

ومن التساؤلات التي أريد الإجابة عنها في هذا المقال ما يلي:
ما هي أهم المدن المشرقية التي استقبلتهم؟ وما دور هذه النخبة في الحياة
العلمية بالمشرق؟ ما هو التوجه العلمي الغالب على تكوين هذه النخب؟ ما هي
أهم الوظائف التي تقلدها علماء قسنطينة بالمشرق؟
أولاً: علماء قسنطينة بالمشرق:

1/ بليغ الدين القسنطيني (كان حي سنة 610هـ/1213م):
هو عبد الله بن محمد بن عبد الغفار بليغ الدين أبو محمد القسنطيني⁽³⁾، استقر
بمدينة دمشق، شاعر مفوه لدرجة أنه كان يلغز لأصحابه بالقصائد
الشعرية، من ذلك ما نقله صلاح الدين الصفدي عن معجم شهاب الدين
القوصي: أنشدني بليغ الدين أبو محمد عبد الله النحوي اللغوي العروضي
رحمه الله لنفسه بدمشق بالمدرسة الريحانية في صفر سنة 592هـ، لغزا في
الفرزدق وجريز من بحر الطويل:

رأيت جريز والفرزدق فوقه × بخفيف منى لم يخش عارا ولا إثما
فألقيت في النار الفرزدق بعد ما × لطمت محياه ولم أقترف ظلما
ولولا جريز ما ذكت نارنا له × فلما ذكت أضحي جريزها فحما

⁽¹⁾-مسعود بريكة، النخبة والسلطة في بجاية الحفصية، رسالة ماجستير، إشراف: علاوة
عمارة، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2009.

⁽²⁾- عبد القادر مباركية وطايي زيد، النخب العلمية القسنطينية من القرن 7هـ/13م إلى القرن
10هـ/13م، مذكرة ليسانس، إشراف: علاوة عمارة، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2010.

⁽³⁾/(جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: أبو الفضل
إبراهيم، دمشق، دار الفكر، 1979، ج1، ص: 58.

والفرزدق هو قطع العجين وجريير هو الحبل⁽¹⁾، وقد اشتهر هذا الشاعر العالم بقصيدة سميت بالخالية لأن قوافيها تنتهي بالخال، وهي من غريب الشعر وأحسنه هذه القصيدة مطلعها:

أيا راكب الوجناء في السبب الخالي × إذا جئت نجد عج على دمن الخالي.⁽²⁾
وقد ذكر السيوطي في بغية الوعاة أنه كان حيًّا سنة (610هـ/1213م)⁽³⁾.

2/ أبو بكر بن عمر القسنطيني (ت 695هـ/1295م):

هو أبو بكر بن عمر بن علي بن سالم رضي الدين الشافعي النحوي⁽⁴⁾، وذكر الذهبي في ترجمة هذا العالم نسبة الدمشقي ثم المصري ما يؤكد أن هذا العالم استقر بدمشق ومصر دحا من الزمن، فأخذ بذلك هاتين النسبتين⁽⁵⁾، كما يتضح من نسبته أنه كان شافعي المذهب، عاش مدة بالقدس كما ذكره السيوطي في بغية الوعاة⁽⁶⁾، أخذ العربية عن ابن معطي الزواوي صاحب الألفية وصاهاهه في ابنته⁽⁷⁾، طلب الحديث والرواية، سمع من الإوفي وابن المقير وبين عوف الزهري وكان وكان له معرفة تامة بالفقه ومشاركة في الحديث، درّس الفقه والعربية⁽⁸⁾، ومن العلماء المشاهير الذين روى عنهم العالم رضي الدين أبو علي الحسن بن أحمد بن

⁽¹⁾ / صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تج: أحمد الأرناؤوط وتري مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2000، ج17، ص: 300.

⁽²⁾ / المصدر نفسه، ج17، ص: 300-303.

⁽³⁾ / السيوطي، المصدر السابق، ج1، ص: 58.

⁽⁴⁾ / أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، مج3، ج5، ص: 434.

⁽⁵⁾ / شمس الدين الذهبي، معجم محدثي الذهبي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ص: 204.

⁽⁶⁾ / السيوطي، مصدر سابق، ج1، ص: 470-471.

⁽⁷⁾ / نفسه، ج1، ص: 471.

⁽⁸⁾ / الذهبي، معجم محدثي الذهبي، مصدر سابق، ص: 204.

بدل العجمي الإوقي⁽¹⁾، وابن الحاجب⁽²⁾، ومن تلامذته العالم محمد بن يوسف بن علي بن حيان⁽³⁾، ومن الذين رروا عنه شمس الدين الذهبي في معجمه، وجمال الدين المزي في تهذيبه⁽⁴⁾.

أما عن وفاة الشيخ رضي الدين القسنطيني فكانت في رابع عشر ذي الحجة سنة 695هـ/1295م وله ثمان وثمانون سنة⁽⁵⁾، ومدحه تلامذته وكان أبو حيان ممن مدحه بقصيدة طويلة⁽⁶⁾.

3/ محمد بن إبراهيم شرف الدين (ت 740هـ/1339م):

هو محمد بن الحسن بن إبراهيم الأنصاري القمني شرف الدين حفيد العلامة المحدث النحوي أبو بكر بن عمر القسنطيني المتوفى سنة (695هـ/1295م)، من تلاميذ النجيب الحراني وابن علاّق، ويحي بن تامتيت والعز بن عبد السلام والكمال بن شجاع والقطب القسطلاني وغيرهم، أجاز له بالفتوى جدّه لأمه الشيخ رضي الدين كما أجاز له شرف الدين السنجاري خطيب المدينة النبوية،

⁽¹⁾ / شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: بشار عواد معروف، ومعي الدين هلال السرحان، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985، ج22، ص: 349-350.

⁽²⁾ / الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص: 265-266.

⁽³⁾ / ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، تح: الحافظ عبد الحليم خان، بيروت، عالم الكتب، 1987، ج3، ص: 67-68.

⁽⁴⁾ / ينظر: الذهبي، معجم محدثي الذهبي، مصدر سابق، ص: 204-205، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: عواد بشار معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1996، ج20، ص: 131.

⁽⁵⁾ / تقي الدين المكي، لحظ الألفاظ بذيّل طبقات الحفاظ، بيروت، دار الكتب العلمية، ج5، ص: 92-93.

⁽⁶⁾ / السيوطي، مصدر سابق، ج1، ص: 471.

درّس بمصر والقاهرة والثغر، ومن تلامذته الشيخ أبو محمد الحلبي، وفي أواخر حياته سلك طريق التصوف⁽¹⁾، ذكره السلامي في وفيات (740هـ/1339م)⁽²⁾.

4/ حسن بن علي بن قنفذ (ت 750هـ/1349م):

حسن بن علي بن حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ، تعلّم بقسنطينة وبجاية، فقيه مالكي محدث مشارك في عدة علوم، ارتحل إلى المشرق مرتين، من مؤلفاته: "المسنون في أحكام الطاعون" ذكر فيه الوباء الذي حل بهم في تلك الفترة بقسنطينة وأحكامه الشرعية والأحاديث الواردة فيه والنكت المتعلقة به، وله أيضا كتاب "المسائل المسطرة في النوازل الفقهية"، توفي سنة (750هـ/1349م)⁽³⁾.

5/ أحمد الشهاب بن موسى (ت 759هـ/1357م):

أحمد الشهاب بن موسى بن إبراهيم بن عبد الله الهباء بن المحيوي القسنطيني المدني المالكي من الفقهاء المالكية، اشتغل كثيرا وحصل علما، استقر بالمدينة، وكانت فيه أهلية الفُتيا مات في حياة والده وخلف ولدين حفظا القرآن كفلهما جدهما، توفي سنة (759هـ/1357م)⁽⁴⁾.

6/ سالم بن سعادة بن طاجين القسنطيني (ت 820هـ/1417م):

هو سالم بن سعادة بن طاجين من علماء قسنطينة استقر بالإسكندرية، لازم القاضي برهان الدين بن جماعة واختص به، ثم صحب جمال الدين محمود بن علي الاستدار، كان أسود اللون جدا فكان يُظنّ أنه مولى، وأما

(1) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تج: أحمد فريد المزيدي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، مج2، ج3، ص: 245.

(2) تقي الدين محمد بن رافع السلامي، الوفيات، تج: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بروت 1982، ج1، ص: 314. وهذا يغني عن قول ابن حجر العسقلاني في الدرر من أن العالم شرف الدين كان حي بعد سنة 730هـ، ابن حجر، المصدر السابق، مج2، ج3، ص: 245.

(3) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1980، ص: 270.

(4) شمس الدين السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993، ج1، ص: 158.

هو فكان يدّعي أنه أنصاري، وكان للناس فيه اعتقاد، بين عينيه سجّادة، وكان له تردد كثير على القاهرة، مات بالإسكندرية سنة (820هـ/1417م) وقد جاوز الثمانين⁽¹⁾.

7/ محمد الشُّمِّي (ت 821هـ/1418م):

محمد بن محمد بن حسن بن علي بن يحيى بن محمد بن خلف الله بن خليفة بن محمد بن الكمال، أصله من قسنطينة، ولد سنة (776هـ/1374م)، اشتغل بالعلم في بلده مدة ثم هاجر إلى الإسكندرية ثم استقر بالقاهرة وسمع من البهاء الدماميني والتّاج بن موسى وغيرهما وأبي محمد القروي، وأجاز له جملة من العلماء وأخذ عن العراقي وتخرج به وبالبدر الزركشي وغيرهما وسمع الكثير من الشّيوخ، وتقدّم في الحديث وصنّف فيه وقال الشعر الحسن، وأصبح مدرّسا بالجمالية سنة (819هـ/1416م)، مرض بعدها ثم شفي من ذلك المرض، استفاد منه السخاوي كثيرا، من مؤلفاته:

- شرح نخبة الفكر (نخبة الفكر لابن حجر العسقلاني).

- نظم نخبة الفكر سماه "الرتبة في نظم النخبة"⁽²⁾.

8/ أحمد بن حسن النعماني (ت 852هـ/1348م):

هو أحمد بن حسن بن علي بن عبد الكريم بن أحمد بن عبد الكريم بن أحمد بن هاشم بن عباس بن جعفر الشريف الشهاب أبو العباس الحسيني القسنطيني الأصل، المصري المولد، والمنشأ، الشافعي المذهب، ويعرف بالنعماني نسبة إلى أستاذه عبد الله بن النعمان، ولد تقريبا سنة 754هـ/1353م بمسجد النور الشرقي، سمع على أبي محمد عبد الله بن خليل بن فرج المقدسي

⁽¹⁾ / ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، بيروت، دار الكتب العلمية، 1984، ج7، ص: 286، وكتابه: الدرر الكامنة، مج2، ج3، ص، 197.

⁽²⁾ / حقق من قبل محمد سماعي، تقديم: المختار بن الأمين الشنقيطي، الجزائر، دار الإمام مالك، 2002.

الصحيحين والمصابيح وتأليف تحفة المريدين، وعلى مهنا بن أبي بكر "مصباح الظلام" لابن النعمان، أقام بالزاوية النعمانية.

من تلاميذه: الشمس بن عبد الرحمن المهاجي صبط بن اللّبان، والمحب الفيّومي والجمال البارنباري وابنه الولوي، والشهاب بن الدقاق والجلال البكري وآخرون، كان كثير الصدقة والصيام والتهجد غير مانع له ما أصابه من مرض الباسور والفتق، استقر في مكة سبع سنين وعزم على الاستيطان لسوء علاقته مع القائمين على الدولة الناصرية، "فاتفق أن أهل الكشف لقيّه إما في الطّواف أو في الحرم فأمسك بأذنه وقال له ارجع إلى مصر وعمر الزاوية فإن الكلاب تدخلها من حائط انهدم فيها فقد مات عدوك في هذا اليوم"، فرجع واستقر بمصر إلى أن توفي في 03 ذي الحجة سنة (852هـ/1348م) ودفن بالزاوية النعمانية وأوصى أن يقال حين يدفن سبعين ألفاً "لا إله إلا الله" فنقّذت وصيته⁽¹⁾

9/ محمد بن عبد الرحمن القسنطيني (ت 859هـ/1454م):

هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن أبو القاسم الحميري الفاسي الأصل، القسنطيني، التونسي، ثم المقدسي المالكي، والد أحمد المعروف بالخلوف (سنتعرض له بالترجمة)، كان بارعا في الفقه متقدّما فيه، جاور بمكة سنة ثلاثين (830هـ/1426م) فما بعدها، سكن بيت المقدس إلى غاية وفاته سنة (859هـ/1454م)⁽²⁾.

10/ محمد بن مبارك القسنطيني (ت 868هـ/1463م):

هو محمد بن مبارك القسنطيني المغربي المالكي، نزيل المدينة النبوية استوطنها مدة، وحمده أهلها حيث رآهم السّخاوي كالمثقفين على ولايته، من شيوخه محمد بن عيسى، تقدم في العلوم وأقرأ الطلبة في الفقه والعربية، مات سنة (868هـ) أو التي تليها بالمدينة المنورة⁽³⁾.

⁽¹⁾ / السخاوي، الضّوء اللامع، بيروت، دار الجيل، 1992، مج 1، ج 1، ص: 275-276.

⁽²⁾ / السخاوي، الضّوء اللامع، مج 4، ج 8، ص: 36.

⁽³⁾ / نفسه، مج 4، ج 8، ص: 295-296.

11/ أحمد الشمني القسنطيني (ت 872هـ/1467م):

هو أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن علي بن يحيى بن محمد بن خلف الله بن خليفة القسنطيني⁽¹⁾، ويعرف بالشُّمْنِيّ بضم المعجمة والميم ثم نون مشددة نسبة إلى قرية أو مزرعة ببلاد المغرب⁽²⁾، ولد في العشر الأخيرة من رمضان سنة (801هـ/1398م) بالإسكندرية وقدم القاهرة مع أبيه⁽³⁾، تعلم على يد كبار العلماء أمثال الشمس الشطنوفي، والبساطي، وأخذ عن الشيخ يحيى السيرامي وعن العلاء البخاري، وأخذ الحديث عن الشيخ وليّ الدين العراقي، واعتنى به والده في صغره وأسمعه كثيرا عن التقي الزيري والجمال الحنبلي والصدر الأبيشي والشيخ ولي الدين وغيرهم، وأجاز له السراج البلقيني والزين العراقي والجمال بن ظهيرة والهيثي والكمال الدّميري والحلاوي والجوهري والمراغي وغيرهم⁽⁴⁾، كما درس أيضا على ابن الكويك والشهاب الطريفي، وخليل القرشي القارئ، والشموس الشامي، وابن البيطار، وتفقه لمالك بأحمد الصنهاجي وانتفع بالعلاء البخاري حيث سمع التلويح والتوضيح والهداية في الفقه الحنفي، تحول إلى المذهب الحنفي سنة (834هـ/1430م) بواسطة العضدي بن السيرامي، كما درّس الطب عن الشمس محمد البلاذري وفصول ابن الهائم في الفرائض، والتزهة في الحساب، ورسالتى المارداني عن ناصر الدين البارنباري، والهندسة والهيئة بقراءة هذا الأخير والحساب سماعا عن ابن المجد وآداب البحث عن أبي بكر العججي، كما درس شرح ألفية العراقي في الحديث⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ / السيوطي، مصدر سابق، ج 1، ص: 375.

⁽²⁾ / محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جمعه: محمد بن محمد بن زيارة اليميني، بيروت، دار الكتب العلمية، 1998، مج 1، ص: 82.

⁽³⁾ / نفسه، مج 1، ص: 82.

⁽⁴⁾ / السيوطي، مصدر سابق، ج 1، ص: 376-377.

⁽⁵⁾ / السخاوي، الضوء اللامع، مصدر سابق، مج 1، ج 2، ص: 174.

أقرأ التفسير والحديث والفقه والعربية والمعاني والبيان وغيره، وانتفع به الجمع الغفير وتزاحموا عليه، ووُلِّي المشيخة والخطابة بترية "قايتباي الجركسي" بقرب الجبل ومشيخة مدرسة اللالا⁽¹⁾، عُرض عليه القضاء وجاءه كاتب السر وأخبره أن رفضه للتعين سيوجب عليه غضب السلطان، فرفض وصمّم على الاختفاء، فقال له كاتب السر: فيما تجيب إذا سألك الله عن امتناعك مع تعيينه عليك، فقال: يفتح الله حينئذ بالجواب، والتمس منه بعض الشباب من ذوي البيوت أن يأذن لهم بالتدريس بعد أن أهدوا له شيئاً فبادر إلى ردّ الهدية وامتنع من الإذن وتزاحم الناس عليه في آخر أيامه وصار شيخ الفنون بلا مزاحم، وجميع الأعيان من جميع المذاهب تلامذته⁽²⁾.

مؤلفاته:

- شرح مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، وهي حاشية لخصها على حاشية الدماميني المعروفة بشرح المزج⁽³⁾، وحاشية على الشفا عنواها "مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا"⁽⁴⁾، قال السخاوي عن هذين الشرحين: "... وحاشية على المغني لخصها من حاشية الدماميني وزاد عليها أشياء نفيسة سماها: (المنصف من الكلام على مغني ابن هشام)، وتعليقا لطيفا على الشفا في ضبط ألفاظه لخصه من شرح البرهان الحلبي، وأتى بتمتات يسيرة فيها تحقيقات دقيقة سماه: (مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا)"⁽⁵⁾.

وعلق الإمام الشوكاني على هاتين الحاشيتين بما يلي: "وقد رأيت حاشيته على المغني وحضرت عند قراءة الطلبة عليّ في الأصل، فما وجدتها ممّا يرغب فيه

⁽¹⁾ / السيوطي، مصدر سابق، ج 1، ص: 376-377.

⁽²⁾ / الشوكاني، مصدر سابق مج 1، ص: 84.

⁽³⁾ / تم تحقيقه من قبل حسن مصطفى العسيلي، القاهرة، مكتبة الآداب، 2008.

⁽⁴⁾ / القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم، الشمني ومزيل

الخفا عن ألفاظ الشفا، بيروت، دار الكتب العلمية، 2 ج.

⁽⁵⁾ / السخاوي، الضوء اللامع، مج 1، ج 2، ص: 175.

لا بكثرة فوائد، ولا بتوضيح خفي ولا بمباحثه مع المصنف بل غايتها نقول من كلام الدماميني، إني لأعجب من تنافس الناس في مثلها، وكذلك حاشية الشفا فإنها في نحو أربعة كراريس، وفيها تفسير ألفاظ غريبة من اللغة يقوم بذلك أدنى الطلبة إذا حضر لديه القاموس فضلاً عن غيره..."⁽¹⁾.

- وله أيضاً شرح مختصر الوقاية في الفقه الحنفي⁽²⁾، واختصر مختصر النقاية⁽³⁾ وسماه: "كمال الدّرية في شرح النّقاية" في الفقه الحنفي، وشرح نظم والده وسماه: "العالى الرتبة في شرح نظم النخبة"⁽⁴⁾، وله أشعار حسنة⁽⁵⁾، توفي في 10 10 ذي الحجة سنة (872هـ/1467م)⁽⁶⁾.

12/ يحيى بن أحمد العلمي (ت 888هـ/1483م):

يحيى بن أحمد بن عبد السلام بن رحمون الشرف أبو زكرياء بن الشهاب أبو العباس القسنطيني المغربي المالكي نزيل القاهرة ثم مكة، ويعرف بالعلّمي، حفظ القرآن واشتغل على جماعة منهم قاضي الجماعة عمر القلشاني، وقدم القاهرة وقد فضل، ولكنه تقوى بالأخذ عن ابن الهمام والقاياتي، أخذ صحيح مسلم على الزين الزركشي وسمع بمكة على الفتح المراغي في سنة 841هـ/1437م وقرأ بالمدينة على الجمال الكازروني من أول البخاري إلى باب الشهادات، عاد فقطن القاهرة وأدّب أولاد القاياتي ودرّس بجامع الأزهر، حج في سنة 875هـ/1470م وقطن مكّة، انتفع به الفضلاء وأقرأ شرح النّخبة وروى البخاري

⁽¹⁾ / محمد بن علي الشوكاني، مصدر سابق، مج 1، ص: 83.

⁽²⁾ / هو كتاب مختصر الوقاية لعبيد الله المعروف بصدر الشريعة مع اختصار الرواية حققه نجم الدين محمد الدركاني، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005، ج 2.

⁽³⁾ / متن النقاية لعبيد الله بن مسعود المحبوبي مع فتح باب العناية في شرح كتاب النقاية، تح: نور الدين المشهور بالملأ علي القاري الهروي، تعليق: أحمد عزو عناية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2005، ج 2.

⁽⁴⁾ / طبع في دار ابن حزم سنة 2003.

⁽⁵⁾ / حيث يقول السيوطي: مصدر سابق، ج 1، ص: 377.

⁽⁶⁾ / محمد بن علي الشوكاني، مصدر سابق، مج 1، ص: 84.

ومسلم والشفا وغيرها، وامتنع عن الفتيا كتاباً للورع إلا لفظاً، وتزوج مع شيخوخته بكراً، كتب حواشي عن المدونة والمختصر والرسالة والبخاري، التقى بالسّخاوي في القاهرة وفي مكة، توفي سنة (888هـ/1483م)⁽¹⁾.

13/ سالم بن القاضي عفيف الدين (ت بعد سنة 889هـ/1484م):

هو محمد بن محمد الزين أبو النجا القسنطيني السكندري قاضي الإسكندرية المالكي ويعرف بابن العفيف، أخذ عن الجمال عبد الله المشرقي والشمس التوبي العربية بالإسكندرية، وأخذ أيضاً عن السهري، وكذلك عن العلامة السخاوي وقرأ البخاري على الشّاوي، عرف بتولعه بالنظم، حج في سنة (888هـ/1483م) وعاد في أول التي تليها (889هـ/1484م)، توفي بعد هذا التاريخ⁽²⁾.

14/ أحمد الخلوف (ت 899هـ/1493م):

هو أحمد بن عبد الرحمن شهاب الدين أبو العباس الخلوف الحميري القسنطيني، أصل عائلته من فاس بالمغرب الأقصى، ولد بقسنطينة سنة 823هـ/1420م وذهب به والده صبياً إلى الحجاز فأقام به أربع سنين ثم تحوّل إلى بيت المقدس وحفظ القرآن ولزم أبي القاسم النويري وأخذ عن شهاب بن رسلان والعزّ المقدسي انتقل إلى القاهرة بعد وفاة والده سنة 859هـ/1454م ثم عاد إلى المغرب حيث استكتبه مسعود بن عثمان حفيد أبي فارس عزوز الحفصي، دخل القاهرة مرات والتقى بالسّخاوي⁽³⁾، وممن أخذ عنه العربية في المغرب أحمد السّلاوي، وقد نوّه المؤرخون بشعر الخلوف خاصة في مجال المدح السياسي الذي قاله في مدح السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان، ومدح كثيراً النبي عليه الصلاة والسلام وخصّص لذلك قصائد طويلة منها: "قطر الغمام في مدح خير الأنام"، "استرواح القبول بمدح طه الرسول"⁽⁴⁾، وجمعت آثاره الشعرية في ديوان طبع

(1) / السّخاوي، الضوء اللامع، مج3، ج6، ص: 137.

(2) / نفسه، مج2، ج1، ص: 242-243.

(3) / عادل نويهض، مرجع سابق، ص: 134.

(4) / أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص: 79-82.

لأول مرة في لبنان سنة (1873م)، ثم طبع بدمشق سنة (1874م)⁽¹⁾، والديوان مقسّم إلى:

أ/ المدح والاستجداء.

ب/ الغزل والاستعطاف.

ج/ الطبيعة ومظاهرها.

د/ الخمرة ومجالسها

هـ/ المراثي وفلسفة الحياة

و/ التوبة والإعتذاريات⁽²⁾.

وله مؤلفات أخرى منها:

- "تحرير الميزان لتصحيح الأوزان" في العروض.
- "مواهب البديع في علم البديع"، وهي قصيدة ميمية.
- "نظم التلخيص" في المعاني والبيان.
- "عمدة الفارض" أرجوزة في علم الفرائض.
- "جامع الأقوال في صنع الأفعال" أرجوزة في تصريف الأسماء والأفعال.
- "نظم المعاني" في النحو.
- "شرح مواهب البديع"
- توفي هذا الشاعر بتونس سنة (899هـ/1493م)⁽³⁾.

(¹) / عادل نويهض، مرجع سابق، ص: 134.

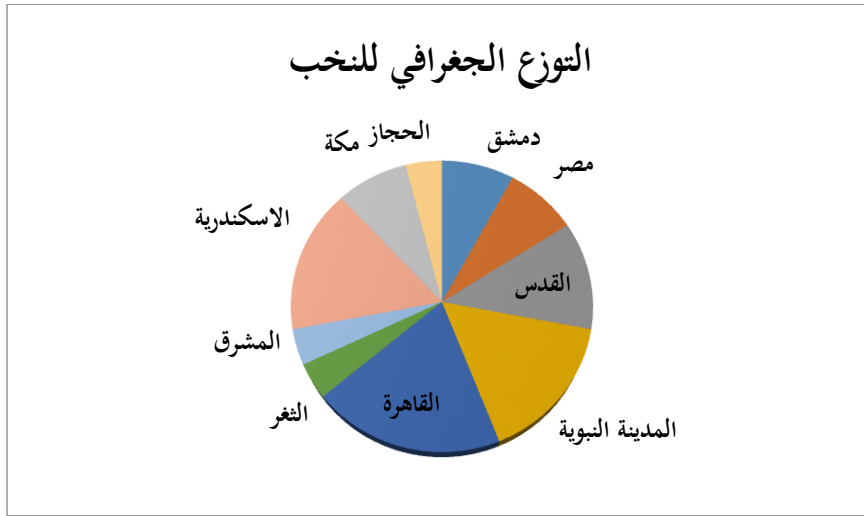
(²) / عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، قسنطينة، دار البعث، 1985، ص: 178.

(³) / عادل نويهض، مرجع سابق، ص: 134.

ثانيا: التوزيع الجغرافي للنخب القسطنطينية على المدن المشرقية:
من خلال تتبع تراجم العلماء القسطنطينيين المتواجدين بالشرق الإسلامي
تمكنت من استخراج المدن التي استقروا بها ولو لفترة زمنية مؤقتة وعليه لتوضيح
الفكرة أكثر أورد الجدول التالي:

المدينة	عدد الإشارات	المدينة	عدد الإشارات
دمشق	02	الثغر	01
مصر	02	المشرق	01
القدس	03	الإسكندرية	04
المدينة النبوية	04	مكة	02
القاهرة	05	الحجاز	01

نمثل الجدول بيانيا:



من خلال الجدولين والدائرة النسبية أُلخص إلى النتائج التالية:

- شكّلت القاهرة من خلال قوة حضورها الوجهة المفضلة والمستقر الذي اتجه إليه علماء قسطنطينية حيث سجلت 05 إشارات في تراجم العلماء السابقين (ت3-ت7-ت11-ت12-ت14) وهذا دليل على حُسن الإقامة بهذه المدينة مع

انتشار العلماء فيها وتوفر الظروف المساعدة على التوطن هناك (سياسية-اجتماعية-اقتصادية-ثقافية).

- تأتي في المرتبة الثانية كلا من الإسكندرية والمدينة النبوية حيث سجلنا 04 إشارات في التراجم (ت3-ت5-ت6-ت7-ت10-ت11-ت12) فالإسكندرية لا تقل شأنًا عن القاهرة، أما المدينة النبوية فقد فضّل البعض الاستقرار فيها نظرا لقداسة المكان واتصاله مباشرة بسيد البشر عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ومن منطلق حبّ النبي وإتباع آثاره وسننه جاءت أفضليّة وتحبيب الاستقرار بهذه المدينة، وهي المدينة نفسها التي عاش بها الإمام مالك رحمه الله لذا من الواجب الإشارة إلى التنوع المذهبي بين هذه المجموعة التي ترجمنا لها (مالكي-حنفي-شافعي...).

- تأتي في المرتبة الثالثة بيت المقدس حيث سجلت 03 إشارات لهذه المدينة في التراجم (ت2-ت9-ت14) وهي من المدن ذات القداسة الدينية التي تجذب العلماء وغيرهم للاستقرار فيها.

- تأتي في المرتبة الرابعة كلاً من دمشق بإشارتين (ت1-ت2) ومصر بإشارتين حيث جاءت بصيغة التعميم في التراجم (ت2-ت8) ومكة بإشارتين كذلك (ت9-ت12).

- تأتي في المرتبة الخامسة كلاً من الحجاز بصيغة التعميم وبإشارة واحدة (ت14) ثم المشرق بصيغة التعميم كذلك وبإشارة واحدة (ت4) ثم الثَّغَرُ بإشارة واحدة (ت3).

ثالثاً: حول التخصص العلمي للنخب:

تعتبر المنظومة التعليمية لأي شخص النواة الصلبة لتوجهه العلمي المستقبلي دون أن ننسى ما للميولات الشخصية من أثر في التخصص في علم معين، فالميولات إلى جانب القدرات الفردية وطبيعة التكوين لها ما يكفي من الدور في تحديد هوية العالم المستقبلي ومجال إبداعه. في هذا الإطار لابد من الإطلاع على طبيعة المنظومة التكوينية التي تلقّتها النُخبة العلميّة القسطنطينية بالمشرق.

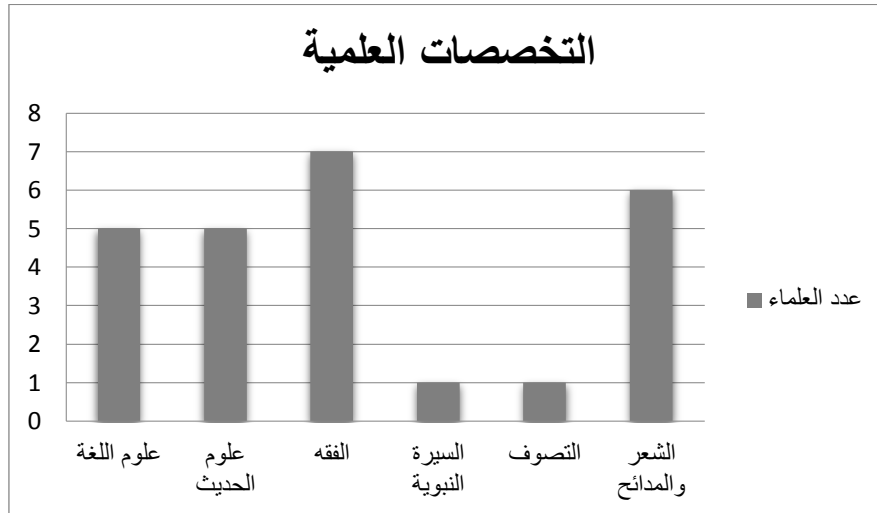
لقد كان تكوين النخب تكويناً موسوعياً لم يقتصر على علم واحد بل شمل الكثير من العلوم وهذا ما تم استخلاصه من تراجم النخب القسطنطينية التي عاشت بالشرق وهذه العلوم سنوردها على النحو التالي:

العربية. الحديث. الفقه. الفرائض. الحساب. الهندسة. الطب. آداب البحث.

رابعاً: التوزيع على الحقول المعرفية:

التخصص	عدد العلماء
علوم اللغة	05
علوم الحديث	05
الفقه	07
السيرة النبوية	01
التصوف	01
الشعر والمذاهب	06

التمثيل البياني للجدول:



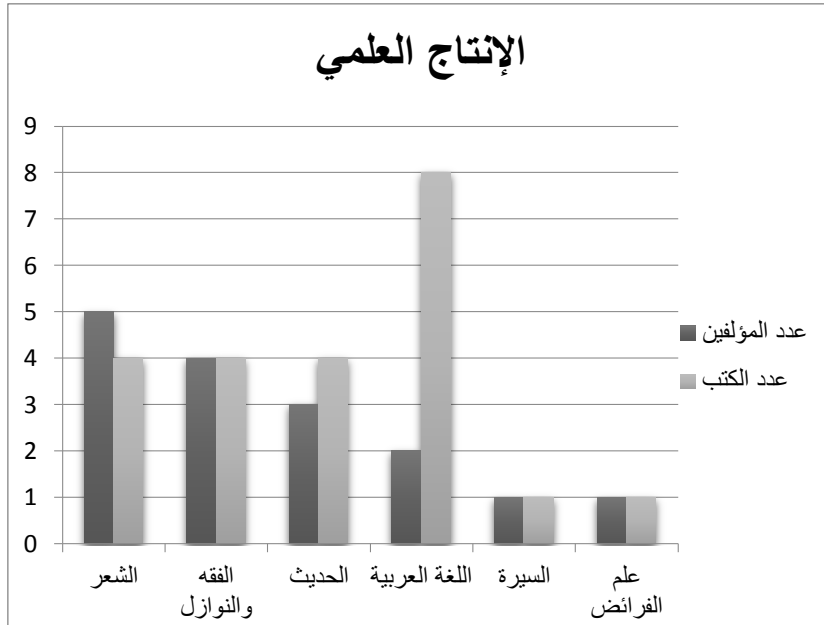
من خلال الجدول وتمثيله البياني أخلص إلى النتائج التالية:

- احتل الفقه المرتبة الأولى بـ 07 إشارات ضمن التخصصات العلمية للنُّخب وهو في أغلبه مالكي باستثناء عالمين وهما أبو بكر بن عمر القسنطيني فقد كان شافعي المذهب وأحمد الشمني الذي أصبح حنفي المذهب بعد أن كان مالكيًا، ومهما يكن يتضح أن الفقه المالكي قد غلب على تخصصات العلماء وذلك كون هذا المذهب لقيّ تجاوزًا منقطع النظر بالمشرق وحتى في المغرب (ت2-ت3-ت4-ت5-ت9-ت10-ت11).
- يأتي بعد الفقه علوم الحديث حيث سجلت وجود 05 إشارات للحديث كتخصص للنخب
- العلمية القسنطينية بالمشرق، ومن الملاحظ أن العلماء القسنطينيين بالمشرق اهتموا بالحديث نظرًا لعلوَّ السند بالمشرق ووجود الكثير من العلماء المحدثين ببلاد المشرق مما شجعهم على المضيّ قدما في طلب الحديث وتدريسه (ت2-ت4-ت7-ت11-ت12).
- ومع الحديث وبعده الإشارات نفسها سجلت حضور علوم اللغة، فاللغة العربية مهمة جدا في التكوين العلمي إذ تعتبر الركيزة الأساسية لكل العلوم خاصة علوم القرآن، التفسير، الفقه، أصول الفقه. لهذا جاء الاهتمام باللغة العربية لا يقلّ عن الفقه والحديث ومن المؤكد في هذا الجانب أن النخبة القسنطينية أثبتت وجودها بالمشرق الإسلامي إلى جانب النخب المحليّة (ت2-ت3-ت10-ت11-ت14).
- أما الشعر فقد أکّد حضوره القويّ كذلك عدد الإشارات 06 إشارات مع المدائح النبوية فالتعمق في اللغة العربية وعلومها يكسب ملكة الشعر والنظم وهو ما تمت ملاحظتهم عند هذه النماذج التي ترجمت لها (ت1-ت7-ت11-ت13-ت14).
- وفي الأخير نجد السيرة النبوية والتصوف بإشارة واحدة لكل منهما وهذا يدل على تأثر بعض النخب العلمية القسنطينية بالطرق الصوفية خاصة للذين استقروا بمصر (ت12-ت3).

خامسا: الإنتاج العلمي لهؤلاء العلماء:

عدد المؤلفين	عدد الكتب	التخصص	عدد المؤلفين	عدد الكتب	التخصص
05	04	اللغة العربية	02	08	الشعر
04	04	الفقه والنوازل	01	01	السيرة
03	04	الحديث	01	01	علم الفرائض

تمثيل الجدول بيانيا:



من خلال الجدول والتمثيل البياني نخلص إلى النتائج التالية:

أ/ من حيث عدد المؤلفين:

يغلب الشعر على عدد المؤلفين فقد سجلت 05 إشارات للشعراء من مجموع 16 إشارة، فالشعر كما يبدو موهبة لا تتعلق بتخصّص العالم بقدر ما هي مرتبطة بمشاعره وأحاسيسه وكذا بتكوينه الأدبي وتبحّره في علوم اللغة فبإمكان أيّ عالم أن يجمع إلى جانب علمه موهبة الشعر والنظم وفي التراجم السابقة ما يؤكد ذلك. وفي المرتبة الثانية يأتي الفقه والنوازل فقد سجلت 04 إشارات من مجموع 16 إشارة وهو تخصص علمي كثر فيه التأليف وذلك نظرا لطبيعة تلك المرحلة ومستلزماتها وظروفها التي تستدعي البحث والتأليف في هذا العلم ولكون الفقه من العلوم القاعدية لتكوين أي شخص في هذه الفترة وبالتالي فالتأليف فيه أمر طبيعي لمن أمضى عقودا من حياته بين كتب ومصنفات هذا العلم.

بعد الفقه والنوازل يأتي علم الحديث فقد سجلت 03 إشارات من مجموع 16 إشارة، فالحديث وعلومه لا يقل شأنًا وأهمية من العلوم الشرعية الأخرى وعلى رأسها الفقه كما أن علو السند بالمشرك عامل شجّع الكثير من العلماء على التخصص فيه والأكثر من ذلك التأليف والتصنيف فيه.

أما اللغة العربية فقد سجلت إشارتين فقط من بين 16 إشارة تليها كلاً من السيرة النبوية وعلم الفرائض بإشارة واحدة لكليهما وهذا يدل عن عزوف العلماء عن التأليف في هذين الحقلين فالسيرة من اهتمام المؤرخين بالدرجة الأولى وعلم الفرائض من العلوم المتضمنة في الفقه لذا جاءت الإشارات لهذين الحقلين ضعيفة.

ب/ من حيث عدد الكتب:

أما من حيث عدد التأليفات فتأتي اللغة العربية وعلومها (نحو، عروض، بيان...) في المرتبة الأولى فقد سجلت 08 إشارات من مجموع 22 إشارة يأتي بعدها الشعر بـ 05 إشارات وتجدر الإشارة هنا إلى عدم وجود أشعار النخبة القسنطينية كدواوين مستقلّ بذاتها باستثناء ديوان الخلوف الذي طُبِع بلبنان لأول مرة سنة 1874م والباقي قصائد متفرقة احتوتها بطون الكتب وصفحات التصانيف المختلفة. بعد الشعر يأتي الفقه والنوازل بـ 04 إشارات ثم الحديث بـ 03 إشارات

ثم السيرة والفرائض بإشارة واحدة لكلا منهما. ومن الضروري في هذا المقام أن أنوه بانتشار ظاهرة الشروح والمختصرات والحواشي وهي سمة غالبية على مرحلة نهاية العصر الوسيط فحالة علماء قسنطينة بالمشرق لا تختلف كثيرا عن نظرائهم الذين لم يغادروا مدينة قسنطينة إطلاقا من حيث تأليف الشروحات والحواشي والمختصرات.

سادسا: الوظائف:

من تلمات النظرة حول الحياة الاجتماعية والثقافية لعلماء قسنطينة بالمشرق الإسلامي أواخر العصر الوسيط الإطلاع على أهم الوظائف التي تقلدتها هذه النخبة خارج ديارها الأصلية رغم أن البعض ولد واستقر هناك وبالتالي يأخذ حكم العنصر المحلي.

بتتبع المختصرات التراجمية التي أوردتها في هذا المقال سجلت ما يلي:
- من 14 ترجمة سجلت 10 إشارات للتدريس وهذا دليل على توجه غالبية العلماء نحو مهنة التعليم لما لها من فوائد في تكوين الأجيال الصاعدة وتثقيفهم وفي خضم هذه الإشارات تمكنا من معرفة على الأقل ثلاث مدارس مشهورة في هذه المرحلة تستقطب التلاميذ والمدرسين على السواء وهي المدرسة الجمالية ومدرسة اللاّلا بالقاهرة والمدرسة الرّيحانية بدمشق، دون شك هذه المهنة تتطلب الإطلاع الواسع على علوم العصر خاصة العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية وما يتصل بها وهذا ما يعلّل انتشار النخب الموسوعية في هذه المرحلة، كما أن التوجه نحو التدريس رغم محاسنه وفوائده الجمة إلا أنه يعيق عملية التأليف والكتابة وهذا أمر كذلك يفسر انتشار ظاهرة الشروحات والحواشي والمختصرات كما قلت ذلك سابقا.

- الفتوى رغم أهميتها في مجتمعات هذه الفترة إلا أنني لم أسجل سوى إشارتين فقط عند العالم محمد بن إبراهيم شرف الدين الذي أجيز بالفتوى وأفتى وكذلك عند العالم يحيى بن أحمد العلمي الذي رفضها كتابةً ومارسها لفظاً لورعه وتقواه وخوفه من مغبة الوقوع في الزلل، إذن رغم أهميتها في هذه الفترة إلا أنها لم تنتشر

كثيرا وسط النخبة القسطنطينية وذلك ربما أعزوه لاهتمامهم وانشغالهم بالتدريس والتعليم.

-الخطابة وظيفه تتصل بالمسجد ولا تنفك في بعض الأحيان عن الإمامة والتعليم المسجدي عامة ورغم أهميتها بالنسبة للعلماء المهتمين بالعلوم الشرعية إلا أنه لم يتم تسجيل سوى إشارة واحدة للخطابة وقد تولاهما العالم أحمد الشُمّي فقط من بين 14 عالما تناولتهم هذه الدراسة.

-القضاء منصب سامي في أي بلد لا يتولاه إلا أصحاب الفضل والعلم والعدالة بين الناس إذ لمأسجل سوى إشارتين فقط الأولى مع العالم أحمد الشُمّي الذي عرض عليه منصب القضاء فرفضه خوفا وتورعا، أما الإشارة الثانية فوجدناها في ترجمة العالم سالم بن القاضي عفيف الدين حيث اقترن لفظ مالكي بمنصب القضاء ما يعني أنه كان قاضيا يقضي بالمذهب المالكي ما يؤكد وجود قضاة على غير مذهب مالك.

-الكتابة وظيفه سامية أخرى لم أسجل لها سوى إشارة واحدة في ترجمة العالم الشاعر أحمد الخلوف الذي مارس الكتابة عند السلطان الحفصي مسعود بن عثمان حفيد السلطان أبي فارس عزوز.

خاتمة:

-في نهاية مقالي هذا أودّ أن أشير إلى النّجاح الباهر الذي حققته النخبة العلمية القسطنطينية التي عاشت بالمشرق الإسلامي أواخر العصر الوسيط، فقد استطاعت إثبات حضورها رغم وجودها إلى جانب نخب محلية معروفة ومتمكنة في ميادين العلوم والمعارف والإنتاج العلمي. بغضّ النّظر عن الظروف التي حتمت على هذه النخبة مغادرة مدينة قسطنطينة نحو المشرق، فإنه من الثابت ومن الواجب الاحتفاء بما حقّقه في بلاد المشرق، فقد استطاعت النخبة الأولى التي وصلت مدن المشرق أن تخرّج علماء أجلاء ذاع صيتهم في مجال التعليم والخطابة والتأليف وتقلّد المناصب السامية وبالتالي نستطيع القول أن مدينة قسطنطينة تخلّد ذكرها في الآفاق واكتسبت سمعةً وشرفا كبيرين بفضل أبنائها العلماء الذين حافظوا على نسبتهم إليها رغم أن أغليهم ولدوا بالمشرق واستقروا هناك وهناك توفّوا وبذلك حُقّ لها أن تلقب بمدينة العلم والعلماء.